يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام

« ١ »

في ظلال شهر رمضان المبارك بأيامه المعدودات؛ الشهر الزاخر بالإحسان والعطاء، الوافر بالبر والنعماء ومنها العتق من النار.. شهر القرآن كتاب الهداية والنور، شهر الصيام والقيام وليلة القدر.. شهر الجهاد الخالص قتالاً لأعداء الله حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله، وجهاداً للنفس بتزكيتها والتسامي بها إلى مراقبة مولاها، والأمانة في أداء الطاعة وصدق التوجه إلى بارئها الحكيم، شهر الارتفاع بالمؤمن إلى تربية الإرادة، وتصفية القلب من الأكدار، وتوكيد الأخوة الإيمانية، على ساحة سداها ولحمتها التقوى على نور من الله...

في ظلال تلك الأيام والليالي والساعات التي يقدرها حق قدرها الموفَّقون، يهفو قلب المؤمن إلى الاستنارة بواحد من المعالم القرآنية الذي تشرق به آيات الصيام في سورة البقرة وما فيه من كريم عطاء الله وفضله فيما شرع ويسَّر من أبواب الخير والقرب منه سبحانه لعباده المؤمنين.

ذلكم قول الله جلَّ ثناؤه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي

وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ [البقرة: ١٨٣ ـ ١٨٦]. إلى آخر الآيات المباركات التي كلها بناء على الطاعة والتقوى، وحماية للبناء، وتزكية متجددة للأنفس عند من رزقوا أن يكونوا الترجمان العملي لهذا البناء القرآني.

وأود الإشارة إلى أني لست بسبيل أن أفسِّر هذه الآيات، ولكنني بسبيل التذكير بالقاعدة التي ينبثق منها خطاب التكليف بأحكام هذا الدين ـ ومنها أحكام الصيام ـ أعني قاعدة الإيمان.

فالمؤمن يخاطب بشرائع الإسلام بوصفه مؤمناً ـ ذكراً كان أو أنثى ـ متصفاً بأهلية التكليف.

وأنت واجد هنا ـ كما هو الأعم الأغلب في نصوص ذاك الخطاب ـ أن الآية الأولى من الآيات الآنفة الذكر: قد بدئت بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وكان ذلك سبيل إعلام المؤمنين بأن الله قد فرض عليهم صيام شهر رمضان ـ وهو ما قررته الكلمة القرآنية فيما بعد.

أجل بدئت بهذا النداء العلوي المثقل بالندى والحنان، الفيّاض بالود والرحمة، المشرق بنور الهداية والخير.

وإنه لنداء من شأنه أن يحرك في القلوب كوامن الحب لله ولرسوله، ويبعث كوامن اليقين ودواعي الاستجابة الندية بالاطمئنان، وحوافز المسارعة التي تتخطى عقبات النفس الأمّارة بالسوء، والجنوح إلى طلب العافية والإقامة على الرغبات الأرضية والشهوات، وهي المسارعة إلى القيام بكل ما فيه طاعة الله وتقواه.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ نداء من الله الكريم في عليائه وجبروته لعباده الذين صدَّقوا كمال التصديق، بلا واسطة ولا حجاب.

ولكم تكرر هذا النداء الرباني في الكتاب الكريم إشعاراً بالأساس الذي بُني عليه التكليف ليكون المؤمن على سنَن الطاعة والتقوى ويفوز ـ إن هو استقام على سواء الصراط ـ بسعادة الدارين.

فقد بلغت مواطن ذلك في السور المدنية زهاء أربع وثمانين آية تجدها منثورة في سور البقرة وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنفال، والتوبة، والحج، والنور، والأحزاب، ومحمد، والحجرات، والحديد، والمجادلة، والحشر، والممتحنة، والصف، والجمعة، والمنافقون، والتغابن، والتحريم.

وهذا ـ كما ذكرت آنفاً ـ في الأعم الأغلب، وإلا فقد جاء التكليف بصور أخرى في العديد من الآيات؛ ولكن يظل الإيمان هو أساس البناء القويم ـ بعمقه وشموله ـ في المنهج القرآني وبيانه من سنة المصطفى عليه الصلاة والسلام، ومن ذلك ما يكون من الأحكام التي يطلب العمل بها فعلاً أو تركاً.

ومن شأن صدق الإيمان أن يستجيب المؤمنون لدعوة الله في طاعته واجتناب معصيته، فيأتمرون بأوامره ويجتنبون مناهيه؛ فلا يفقدهم حيث أمرهم، ولا يراهم حيث نهاهم، وتجيء الطاعة بعد الطاعة، فيكون ذلك عامل تنمية لبواعث الخير، ومحبة الله عز وجل، والفرح بفضله ورحمته!.

ويا لها من صياغة يصاغ عليها المؤمن، فيكون امتثاله للأمر واجتنابه للنهي: سياحة متجددة تجعله موصول القلب بمولاه، وقوةً ـ تزينها التقوى ـ على فعل كل ما يرضي ربه عز وجل مهما غلا الثمن، ويقربه إليه زلفى، كائنة ما كانت مشقة التكاليف.

وسبحان من دعا نبيه ﷺ ـ وهو الأسوة الحسنة لأهل الإيمان ـ إلى أن يكون دائماً على سنن العمل المتجدد في طاعة الله، كلما فرغ من طاعة نصب طاعة غيرها بالمعنى الأشمل لهذه الكلمة المباركة وأن يكون المقصود مرضاة الله والرغبة إليه. ذلكم قوله جل شأنه في سورة الانشراح خطاباً له صلى الله وسلم وبارك عليه: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ ﴿٨﴾﴾ [الشرح: ٧ ـ ٨].

ومما ورد في تفسير الآيتين ما أخرج شيخ المفسرين عن زيد بن أسلم والضحاك ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ﴾ أي من الجهاد﴿ فَانصَبْ﴾ أي في العبادة ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ﴾ قال النووي: (اجعل نيتك ورغبتك إلى الله عز وجل). وقال الحافظ ابن كثير: (أي إذا فرغت من

أمور الدنيا وأشغالها وقطعت علائقها فانصب إلى العبادة وقم إليها نشيطاً فارغ البال وأخلص لربك النية والرغبة). ألا إن البرهان الذي ما بعده برهان، والحجة التي لا تدانيها حجة على صدق الإيمان وتذوق حلاوة الطاعة: أن يكون هذا المؤمن على المحجة في المسارعة إلى امتثال منبعث من القلب لحكم الله تبارك وتعالى في العسر واليسر والمنشط والمكره.

وفي هذه المسارعة التي ينمو معها تذوق الطاعة، وحبُّ الاستجابة لدعوة الله ورسوله: سعاده تعز على الوصف، وطمأنينة لا تعدلها طمأنينة، وهنيئاً لأهل الطاعة المتقين: ما يغمرهم من الفضل الإلهي جزاء إقبالهم الصادق على الله، وتساميهم على المعوقات، وانتصارهم بالإيمان على العقبات التي تعترض السالكين إليه سبحانه.

وفي عود على بدء؛ هنا في آيات الصيام يقول الحكيم الخبير: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾.

أرأيت أيها المؤمن: فرض عليكم الصيام ـ وهو الإمساك عن المفطرات من طعام وشراب ونكاح من طلوع الفجر الصادق إلى غروب الشمس ـ أياماً معدودات هي شهر رمضان المبارك؛ وترى أن الإمساك مطلوب عن الحلال المفطر، وهو إمساك تتجدد لذته عند المؤمن لحظة بعد لحظة، حتى يحين غروب الشمس. ويفرح بفطره المشروع آنذاك. وما أعظم الفرحة الثانية يوم لقاء مولاه الكريم المنان؛ فقد جاء في الحديث القدسي الذي أخرجه البخاري ومسلم من رواية أبي هريرة رضي الله عنه قول النبي ﷺ: «**... والذي نفس محمد بيده لخُلوف فم الصائم أطيب من ريح المسك**». «**للصائم فرحتان يفرحهما: إذا أفطر فرح بفطره وإذا لقي ربه فرح بصومه**». هذا لفظ رواية البخاري وفي رواية لمسلم: «**...للصائم فرحتان: فرحة عند فطره، وفرحة عند لقاء ربه**». «**ولخُلوف فيه أطيب عند الله من ريح المسك**». ورواه أبو داود والترمذي والنسائي.

فالذي أوجب هو الله الخالق البارىء الذي نحن به مؤمنون وبكتابه مصدِّقون؛ أجل: كتب عليكم الصيام؛ والذي فرض هذه الشعيرة التي جعلها النبي ﷺ ــ وهو المبلِّغ عن الله ما أراد ــ رابع أركان الإسلام: هو سبحانه صاحب الأمر والنهي الذي يعلم ما فيه خيرية الهدى لعباده، وما يحقق المصلحة الشرعية النافعة لهم؛ الأمر الذي يضمن لهم ــ إن هم أحسنوا العمل واتقوا ــ سعادة الدارين.

وما أجمل أن يستذكر المؤمن دائماً أن عليه ــ وهو يقوم بهذه الفريضة ــ أن يصوم إيماناً واحتساباً، لا يبتغي سوى مرضاة ربه، وذلك ما ينيله ــ بفضل الله ــ المغفرة والعتق من النار.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**من صام رمضان إيماناً واحتساباً، غُفر له ما تقدم من ذنبه**» أخرجه البخاري ومسلم.

هذا ما ينبغي للمسلم أن يفعله كيما يكون في عداد من تقبل طاعتهم وتغفر ذنوبهم ــ بفضل الله وكرمه ــ إنك تراه وهو الفرِح بهذه الشرعة المباركة، يصوم ــ يوم يصوم ــ عملاً بدين الله: إيماناً واحتساباً فهو لا يصوم رياضة، ولا يصوم نظاماً، ولا يصوم صحةً أو لغرض كذا وكذا... وعدِّد ما شئت من حِكَم الصيام وما أكثرها؛ ولكنه يصوم لأن الله تعالى أوجب الصيام وجعله على لسان نبيه ﷺ رابع ركن من أركان الإسلام.

وهو ــ كذلك ــ يحمد الله أن أكرمه وأعظم له العطاء حين شرح صدره للإسلام وهداه للإيمان وزينه في قلبه، وكلَّفه بشرعة تنبني على هذا الإيمان.

أن يستشعر المؤمن إيمانه الذي خالطت بشاشته القلب، ويكون على تذوق صادق لحلاوة هذا الإيمان ــ شأن الأتقياء الأصفياء ــ ويحسَّ بالرباط الوثيق بين الإيمان وبين ما كلف به من أحكام فعلاً أو تركاً: ذلكم هو اللبنة الأولى في الإعداد الصحيح للمسلم الحق على ساحة البناء المنشود، والتي من ورائها يكون ــ بعون الله ــ الالتزام المرضيُّ، والانقياد الموصل على صعيد الجماعة والأمة، إلى التمكين في الدنيا، وأكرم عاقبة يوم الدين.

القاعدة الإيمانية.. والبناء.. يا أيها الذين آمنوا

« ٢ »

من الحكم البالغة في الكتاب المعجز: ما ازدان به الأسلوب القرآني ـ في الأعم الأغلب ـ من اتخاذ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ مبتدأ خطاب التكليف للمؤمنين بما افترض الله عليهم من الأحكام، لما أن في هذا الخطاب الندي الثري بالرحمة والود: إثارةً للعقل المسلم كيما يعمل عمله في البعد عن التناقض المردي في عدم الاستجابة لدعوة الله، واتخاذ أمر الشارع ونهيه ظهرياً، ناهيك عما تعمله تلك الكلمات الهاديات في القلب، من إثارة لكوامن الإيمان، وشحذٍ للهمم في المسارعة إلى السمع والطاعة، لأن ذلك مقتضى الإيمان، وبريد المؤمن إلى أن يكون من أهل الصدق المتقين.

وقد أشرت فيما سبق من القول إلى أن افتتاح آيات الصيام في سورة البقرة بقول الله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾﴾ [البقرة: ١٨٣] حيث صدَّر خطاب التكليف هذا بـ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ذلك النداء العلوي الكريم ـ كما هو الشأن في أكثر آيات الخطاب للمكلفين في كل شأن من شؤون الفرد والجماعة، عقيدةً وشريعةً وسلوكاً وأخلاقاً، بل كما هو طابع الآيات في العهد المدني على العموم ـ دليل واضح على أن الركيزة الأولى التي يوليها المنهج القرآني تلك الأهمية البالغة في بناء الإنسان المسلم بناءً يضمن قدرته على الفاعلية والتأثير في مواجهة الحياة، وينمِّي في عقله وقلبه حوافز العمل الخيِّر المثمر: إنما هي الإيمان..

وأن القاعدة النورانية التي ينبغي أن يقوم عليها البناء في العقيدة والأحكام ونظام السلوك والأخلاق، وكل ما يتصور من ضوابط العلاقة بين الإنسان ونفسه، وبينه وبين ربه جل وعلا، وبينه وبين الآخرين، بدءاً من أسرته وانتهاءً بالمجتمع والأمة، ومن تدعو الحاجة إلى التعامل معهم فيما وراء ذلك: إنما هي الإيمان كذلك.

ولقد يأخذك العجب من إحاطة تلك الكلمات المشرقات، بياناً وهداية: إحاطة اتسعت لخطاب المكلفين في الأمة بهذا الأسلوب المعجز كي يكونوا على المستوى اللائق بما عهد الله إليهم أن يأخذوا أنفسهم بمنهج الرسالة الخاتمة التي شرَّفهم الله بها، فتتحقق المواءمة الدقيقة بين الإيمان، وبين ما شرع لهم من تكاليف متنوعة هي صورة عملية للمنهج الرباني في شموله وعمقه وتكامله.

ولنتعرف على بعض النصوص ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ لنرى سعة الآفاق في تناولها وتنوُّع التكليف الذي يخاطب به المؤمنون والمؤمنات في ظل تعاليم الإسلام التي لا تنحسر هدايتها عن جانب من جوانب الحياة.

ها نحن أولاء نقرأ في سورة البقرة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا﴾ [البقرة: ١٠٤]. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى﴾ [البقرة: ١٧٨]. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾﴾ [البقرة: ٢٧٨]. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

ونقرأ في سورة آل عمران: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً﴾ [آل عمران: ١١٨]. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

وتطالعنا سورة النساء بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ﴾ [النساء: ١٩]. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾﴾ [النساء: ١٤٤].

ونقرأ في سورة المائدة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾[المائدة: ١]. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾ [المائدة: ٨]. كما نقرأ قوله جل وعلا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ﴾[المائدة: ٥١].

وتسعدنا سورة الأنفال بقوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾[الأنفال: ٢٤]. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا﴾ [الأنفال: ٤٥].

ونقع في سورة التوبة على قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ﴾[التوبة:٢٣]. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾﴾[التوبة:١٢٣].

ونقرأ في سورة النور قوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا﴾ [النور:٢٧]. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ [النور:٢١].

وفيما اشتملت عليه سورة الأحزاب نقرأ: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ﴾ [الأحزاب: ٩].﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً﴾[الأحزاب: ٧٠].

وفي سورة الحجرات نقع على قول الله جل ثناؤه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾[الحجرات: ٦]. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ ﴾[الحجرات: ١١٠].

وهذه سورة الحشر تطالعنا بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ﴾ [الحشر:١٨].

ونقرأ في سورة الممتحنة قوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ ﴾ [الممتحنة:١].

كما نقرأ في سورة الصف قول الحكيم العليم:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف:٢].

ونقرأ في سورة الجمعة:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾ [الجمعة:٩].

وتشرق علينا سورة التحريم بقوله جل شأنه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴾ [التحريم: ٦].

ولو أنّا بسبيل الكلام على خطاب التكليف من حيث هو ــ وليس بصيغة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فحسب ــ لأوردت العديد من الأمثلة كان التكليف بها بغير هذه الصيغة ولكنها على نهج إحكام العلاقة بين إيمان المؤمن ــ أو ما هو منه بسبب ــ وبين تكليفه بما يقول أو يفعل.. أو يمت إلى ذلك بصلة.

وعلى سبيل الاجتزاء اليسير: أذكّر بقوله تعالى في سورة المائدة: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾[المائدة: ٢٣]. وقوله في سورة الأنفال: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١]. ﴿ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾ [الأنفال: ٤١]. والكلام على أحكام الغنائم.

وبقوله تعالى في سورة التوبة: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٣]. وبقوله جل شأنه في سورة النور:﴿يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [النور:١٧].

وما أكثر الصور المشرقة وأوفر الأساليب في ذلك؛ دليلَ الحكمة في وضع كل قضية موضعها على سلّم الهداية كما أراد ذلك الحكيم الخبير.

وفي متابعة للماضي القريب: لا يرتاب ذو بصيرة في أن الله تبارك وتعالى عندما يخاطب كل مؤمن ومؤمنة في كل زمان وبيئة بهذا الخطاب المثقل بندى الخير الناطق بسموٍّ مرتبة الإيمان وأهله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾حاملاً إليهم التكليف بالصيام، وأنه فرض حتمٌ كتب عليهم كما كتب على الذين من قبلهم ــ من حيث المبدأ لا من حيث عدد الأيام ووقتها ــ يكون ذلك إيذاناً بالارتباط الوثيق ــ كما أشرنا من قبل ــ بين القاعدة ــ وهي الإيمان ــ وبين ما يقوم عليها من تشريع وأحكام.

وقل مثل ذلك عن صلة هذه القاعدة التي هي الأساس المتميز المكين بهذه الفريضة، فريضة الصيام التي جعل الله أداءها احتساباً على الوجه الذي ينبغي: طريق المؤمن إلى أن يكتب في عداد المتقين الذين يخافون الله واليوم الآخر، ويخلصون النية فيما يأخذون وما يذرون، وكل همهم أن يكون الله راضياً عنهم سواء

أكان العمل من كسب الجوارح أو كان من عمل القلوب ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ وغير خاف أن الله مع المتقين، وأن الله وليُّ المتقين، وأنه سبحانه يحب المتقين، ومطلوب من المؤمنين أن يسارعوا إلى مغفرة من ربهم وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين.

وإذا كانت هذه الكلمات الحبيبة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ التي لها أجمل وقع في نفس المؤمن والتي تنادي المؤمنين بالتكليف والعمل والجهاد: فيّاضة بالكرم والعطاء والتذكير؛ إنها في الوقت نفسه ناظم المسؤولية الذي يعرِّف المؤمن مكانه من البناء في نفسه وفي المجتمع.

وكلما تكررت وتكررت: زادت معطيات المؤمن وقدرته على الحركة نماءً واتساعاً.

لذا كان من الواضح أن من حكم افتتاح الآية بـ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ـ وقد أشرق بها الكتاب العزيز أربعاً وثمانين مرة ـ عند الخطاب بأمر من الأمور: استجاشة قلوب المؤمنين وعقولهم، وتحريك همهم وتقوية عزائمهم على الاستجابة بكل رضى وطمأنينة دون أن يجدوا في أنفسهم أي حرج، وتذكيراً لا يحتمل شيئاً من اللبس أو الاحتمال المضاد: بأن من مقتضى الإيمان ومستلزماته: أن يكون المؤمن ـ بوصفه مؤمناً ـ وقّافاً عند حدود الله، مستمسكاً بما جاء عن الله تعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام في أي شأن من الشؤون دقَّ أو جلَّ.

انظرها يا أخي المؤمن، تدبرها، دقق في جنباتها، تخرج بعظيم النتائج، وموجبات التنبه العقلي واليقظة القلبية التي تسعف في تجاوز عقبات الفكر والعمل واقتحام معاقل الدعة والخمول.

إن هذا الارتباط المحكم بين التكليف والإيمان: قضية أكبر مما يتصوره الكثيرون، وينبغي أن تعمل عملها في واقعنا من جديد، على أي ساحة من الساحات التي اعترى الأمةَ نقص أدائها ونماء ما فيها من الخير، أو تفاقم ماابتليت به من التخلف والضعف والوهن.

والغد الأفضل مرهون ـ بعون الله ـ بقراءة ذلك قراءة جديدة يشارك فيها العقل والقلب مشاركة حقيقية فاعلة، تثمر ما يتطلع إليه المصلحون من اقتحام عقبة التخلف المزري عن الإسلام، ولا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلَح به أولها.

البناء.. وشرعة الصيام

«٣»

كانت طويلة رحلة الإنسان على أرض الحيرة قبل أن يتأذن الله بالرسالة الخاتمة وحياً على نبينا المصطفى عليه الصلاة والسلام.

ولقد كان بيانه ﷺ للقرآن الذي أنزل عليه: بأقواله وأفعاله وتقريراته هادياً للأمة، سما بها إلى أن تكون معالم هذا الكتاب العزيز في العقيدة والعبادة وكل ما يكون من ضوابط التعامل بين العبد وربه وبينه وبين الآخرين، وبين الدولة المسلمة والدول الأخرى في حالات السلم والحرب، وكل ما يمت إلى ذلك بسبب: واضحةً مستنيرة، وتفتح الباب للاجتهاد فيما لا نص فيه.

ولقد كان من توكيد النبي ﷺ لهذه الحقيقة قوله عليه الصلاة والسلام فيما روى أحمد وابن ماجه: «**تركتكم على البيضاء ليلُها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك**».

قال أبو الدرداء: «**صدق والله رسول الله ﷺ. تركمنا والله، على مثل البيضاء، ليلُها ونهارها سواء**».

وفي واحد من المعالم القرآنية رأينا من قبل بعضاً من عطاء قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾ [البقرة: ٢١].

وأنت واجد أن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ــ وهو يؤدي الأمانة في إعداد المسلم الحق، ويربي الأمة على الوجه الأكمل فيما شُرع لها من أحكام في العبادات وغيرها ــ لا يني يوجه المسلمين بعظيم بيانه إلى حيث يكون الصيام بريد أن تكون التقوى صفة ملازمة للمؤمن وسجية لا تفقد أثرها في جانب من جوانب السلوك وهو يمارس شؤون الحياة، وتلكم هي التقوى بمعناها الحقيقي الذي يتجاوز أن تكون دعوى بلا دليل.

كما يوجه ــ عليه الصلاة والسلام ــ إلى أن تكون فريضة الصوم عاملاً متجدداً في حياة المسلم يشده إلى القرب من الله دون مشقّة أو عنت، ويُنمي في نفسه طاقة البناء ومشاعر الرغبة الصادقة في العمل المثمر في إطار من الأخوة الإيمانية ــ على تنائي الديار واختلاف الألسنة والألوان ــ كما يحسن صلته بكتاب الله صلة قادرة على إحداث النقلة ــ أن لو صدقت العزائم ــ إلى ما هو الأفضل والأرضى لله تبارك وتعالى، خصوصاً وأن الصيام في بعض إشراقاته لون بارز من ألوان جهاد النفس، والدُّربةِ على أخلاق المجاهدين في ميادين القتال، أولئك الذين تتربى إرادتهم على ترك المألوف، والتنازل عما يحب أحدهم ويشتهي، إلى ما يحبه الله ويرضاه مهما كانت الرغبة عارمة والشهوة آخذة بالنواصي من هنا وهناك.

ولقد كان من البيان النبوي الكريم ما أوضح رسول الله ﷺ، من أن الصيام الحقيقي المرضيَّ لله ليس أمراً آلياً قوامه الإمساك عن المفطرات الظاهرة من طلوع الفجر الصادق إلى غروب الشمس مع النية فحسب؛ فهذا الصيام يسقط الفريضة ويخرج من العهدة والله أعلم.

ولكن الصيام المقبول وراء ذلك، وبيان هذا: أن الصيام الذي يطلب أن يكون بريد التقوى، فتكون مرجوة التحقيق بالقيام به. هو قوله سبحانه: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ والذي يجعل من الصائم قوة بانية على صعيد الذات والمجتمع تسهم في تنمية عناصر الخير ومقومات الطمأنينة والاستقرار وكل ما هو من ذلك بسبب... هذا الصيام لا بد له من سياج كريم يصونه ويحول دونه ودون أن يُرَدَّ على صاحبه؛ ذلكم هو إمساك الجوارح عن كل ما ينافي أخلاق الإسلام وآدابه في العلاقات الاجتماعية وغيرها، ناهيك عن مراقبة الله عز وجل، وأن يحسب لكل تصرف حسابه كما هو في ميزان الهداية والحق.

وانتهاك حرمة هذا السياج ربما أدى إلى ضياع الصوم حقيقة عند الله، وإن كان قد استوفى شرائطه وأركانه في الظاهر. ألم تر إلى قول النبي ﷺ كما جاء في الحديث الصحيح: «**ليس الصيام من الأكل والشرب، وإنما الصيام من اللغو والرفث؛ فإن سابَّك أحد أو جهل عليك: فقل: إني صائم إني صائم**» رواه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي.

وفي توعد لأولئك الذين يمسكون عن الطعام والشراب وغيرهما من المفطرات الظاهرة. ولا يصومون عن الأذى وإحداث القلق في المجتمع، ويسهمون في تمزقه وإضعافه: يقول الرسول ﷺ كما روى البخاري وأصحاب السنن: «**من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه**» وفي رواية: «**من لم يدع قول الزور والعمل به والجهل**» رواه البخاري وأصحاب السنن.

وبعد: فهذا الهدي النبوي في ظل المعلم القرآني: يقفنا على صورة من صور البناء المتين المتكامل للإنسان والمجتمع في وقت معاً؛ لأن المفترض أن يصوم المكلفون كافة إذا انتفى العذر من مرض أو سفر، وأن يكون كل منهم عند هذا الذي وجه إليه من لا ينطق عن الهوى، والمؤتمن على بيان الكتاب عليه الصلاة والسلام.

ولنتصور مجتمعاً تقوده عبادة الصيام إلى هذا النسيج المتماسك الذي ترتبط الأخلاق فيه بالعقيدة والعبادة الخالصة لله، كيف يكون؟!.

شرعة الصوم.. والبناء

« ٤ »

كان من عطاء الله في صيام هذا الشهر المبارك أن نسبه ـ جل شأنه ـ إلى نفسه وأنه هو الذي يجزي به، مع أن العبادات كلها لله سبحانه وهو الذي يجزي بها، فلا عبادة إلا له، ولا توجه إلا إليه، وهو جل وعلا بيده العطاء والمنع ﴿كُلاًّ نُّمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً﴾ [الإسراء: ٢٠]. ولكن حكمة عظيمة تكمن وراء هذه الخصوصية لصيام شهر رمضان. ما أحوج الأمة إليها، وهي تحاول أن تقهر الصعاب، وتحشد ما أعطاها الله من إمكانات على كل صعيد، كي تواجه مرحلة التخطي إلى ما هو الأفضل والأكرم إن شاء الله.

فالمسلم الذي سلم له صومه كما بيَّن النبي عليه الصلاة والسلام بشَّره ربنا تبارك وتعالى ببشارة عظيمة هي ما سلفت الإشارة إليها. وذلك ما جاء في الحديث القدسي الذي أخرجه البخاري من رواية أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**قال الله عز وجل كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به، والصيام جُنة. فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب. فإن سابَّه أحد، أو قاتله، فليقل إني صائم. والذي نفس محمد بيده لخُلوف فم الصائم عند الله أطيب من ريح المسك. للصائم فرحتان يفرحهما: إذا أفطر فرح، وإذا لقي ربه فرح بصومه**».

الواقع أني أذكر الحديث، وأعلم أن الكثرة الكاثرة من المسلمين يقرؤونه ويسمعون عن دلالته الكثير المبارك في هذه الأيام، ولكن حسبي الإلماحة السريعة إلى الخصوصية التي نجدها في تلك الكلمات النورانية «**كل عمل ابن آدم له إلا الصوم**

فإنه لي وأنا أجزي به» فيم كان ذلك؟ وكل الأعمال التي يقوم بها المسلم ـ في مجال العبادة ـ كما ذكرنا في صدد هذا الكلام ـ: هي لله عز وجل وهو سبحانه الذي يجزي بها.

الواقع أن الصوم لا يقع فيه الرياء؛ فكل عمل من أعمال البر باعتبار أن له صورة إيجابية ظاهرة يمكن أن يدخله الرياء، والرغبة في الظهور أمام المخلوقين بمظهر التبتّل والنسك. أما الصوم: فإنه إمساك وليس عملاً يظهر، فهو أقرب إلى عمل القلب منه إلى عمل الجوارح، إنه بالنية التي تخفى على الناس ولا يعلمها إلا الله عز وجل.

والصوم ـ كذلك ـ أمانة؛ فهو أمر بين العبد وخالقه الذي يعلم السر وأخفى، وفي مقدور كل امرىء أن يكون غير ممسك عن المفطرات ثم يدعي غير ذلك. والذي يعلم سرَّه ومكنون نفسه وما توسوس به: هو الله الذي قال في كتابه:﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ**﴾ [ق: ١٦]. من أجل أن الصيام أمانة وأنه بعيد عن الرياء.. إلى وجوه أخرى ذكرها بعض العلماء. قال الله تعالى: «**إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به**»، فما دام لا يطّلع على الصوم إلا هو سبحانه: فلتكن الإضافة إلى نفسه سبحانه. وقد جاء في بعض روايات الحديث «**يدع شهوته من أجلي**».

أما إنا لو فتحنا البصائر على نور هذه الحقيقة وحاولنا أن نفيد منها لواقعنا، لألفينا ثروة لا تنفد من الخير إذ الأمانة والبعد عن الرياء زاد لا بد أن يصحب كل عامل على طريق هذه الأمة، مهما كان شأنه وتخصصه! وكم تعاني الأمة اليوم من فقدان الأمانة، ومن الرياء وحب الظهور.

أما ونحن نبصر هذه الخصوصية في رمضان من منظور جماعي: نجد لزاماً أن تكون الأمانة والإخلاص لله نسغ الحياة في جيل نُعدُّه لحمل أمانة البناء وتنمية الوجود الذاتي للأمة والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

شرعة الصوم.. والبناء

« ٥ »

في ظل المعلم القرآني من آيات الصيام، رأينا فيما سبق بعضاً من توجيهات النبي ﷺ التي تجعل من الصيام عبادة مقبولة، ينعكس أثرها على الفرد والمجتمع، حين دعا عليه الصلاة والسلام ـ وهو المبيِّن عن ربه ما أراد ـ إلى إمساك الجوارح عن كل ما ينافي أدب الإسلام وأخلاق البررة المتقين.

ويزيد الهدي النبويُّ هذه القضية بياناً، فيقول عليه الصلاة والسلام متوعداً أولئك الذين تنفصل العبادة عندهم عن السلوك، فيكون صيام النهار وقيام الليل عملاً مبتوراً عن خشية القلب، ومراقبة الله عز وجل، حتى تجد إمساكاً عن المفطرات هو بالتقليد الآلي أشبه، وحركات ليس فيها ندى الطاعة ولا حرقة القلوب الخاشعة... فيقول صلوات الله وسلامه عليه فيما روى أحمد وغيره: «**ربَّ صائم ليس له من صيامه إلا الجوع وربَّ قائم ليس له من قيامه إلا السهر**».

إن هذا الإنسان غريب على بنية المجتمع المسلم كما أراد الله له أن يكون، وكما عانى بناءَه المبلِّغُ الصادق عليه الصلاة والسلام، فهو يجوع ويظمأ وتحاصره شهواته نهاراً، وقد ينصَب في القيام ليلاً، ولكن ليس له ـ ويا لَلْحِرمانِ ـ إلا جوع النهار وسهر الليل، إنه في واد، وقبول عمله في واد آخر.

ولا عذر لمعتذر بعد البيان الأمين ممن قال الله في شأنه: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]. تُرى أيُّ صيام هذا الذي يدعيه الظالمون الطغاة، والمظاهرون لأعداء الله على المسلمين،

وآكلو الحرام والمؤذون لعباد الله؟!! إنه ـ والله أعلم ـ صيام الذين قال الله فيهم: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴿٤٣﴾﴾ [إبراهيم: ٤٢ -٤٣].

وهكذا تأخذ العبادات ـ ومنها فريضة الصوم ـ مكانها في عملية البناء الفريدة في تاريخ بني الإنسان؛ فليست هذه العبادة رسوماً وأشكالاً مقطوعة النسب عن الاستقامة في التعامل والسلوك، وليست أمتنا أمة طقوس وزخارف ورسوم، تهمل القلب وتُعنى ـ فحسب ـ بما تبصره العينان من الفن والشكليات، ولكنها أمة تحمل رسالة العبودية الصادقة لله عز وجل في إطار من البناء: عماده الإنسان، ومحوره إعداد هذا الإنسان بدءاً من داخل النفس، وتنمية مشاعر الإنسانية ودواعي الفطرة فيه. والواجبُ في شرعة الإسلام أن ينعكس ذلك على تصرفاته وطريقته في السلوك؛ ليتم التواؤم بين العلم والعمل وبين العبادة والسلوك.

فالتزام الشرعة في الوقت، والحركة، وطريقة العبادة: عبادة. وانتظامُ هذه الأمور ضمن دائرة من التكامل الذي يقوم على يقظة القلب ومراقبة الله عز وجل: عبادة أيضاً، فالمسلم ـ على سبيل المثال ـ يلتزم بالعدد المطلوب من الأيام في رمضان حسب رؤية الهلال، مع المجال الزمني للإمساك، لأن العَمديَّة في تجاوز الفجر عند الإمساك أو الفطر قبل الغروب بأي زمن متصور: قاضية على صوم ذاك النهار، وهو درس في الأمانة والنظام ما بعده درس، ولكن ذلك كلَّه ليس منقطعاً ـ كما أسلفنا ـ عما توجبه سلامة البنية في المجتمع، وضمان استقراره في ظل أحكام الإسلام. والسعيد السعيد من انبعثت أعماله عن قلب يقظ، يفيض على الجوارح ـ وهو موئل التقوى ـ استقامة سلوك وإخلاص دين، وإذا صلحت حال الفرد وفق هذا المنهج المتكامل: صلحت ـ بعون الله ـ حال المجتمع. والبررة الأطهار الذين كتبوا تاريخ بدر، والفتح في رمضان، هم أولئك الذين أحسنت يد محمد ﷺ الصنَّاع بناءهم، فكان ما كان على يدهم من النصرة والتمكين.

ولكم نكون على قدم الصدق والكرامة، حين نتخذ من شهر رمضان جسراً يصلنا بأولئك البناة الأمناء الذين عبدوا الله صائمين مجاهدين، صادقين ما عاهدوا الله عليه، وكانوا بذلك الترجمان العملي للإسلام الذي آمنوا به، وآمنوا بمن حمله إلى الدنيا وحياً من عند رب العالمين.

شرعة الصوم.. والبُناة الأمناء

« ٦ »

حين نفيض في الحديث عن قضية موضوعية برأسها، لا يجوز أن يصرفنا ذلك عن سير أولئك البُناة الأمناء الذين كانوا في عملهم وسلوكهم الترجمان العملي لتلك القضية المطروحة؛ وما قلناه عن مكان فريضة الصوم في البناء، وعن التوجيه النبوي الذي يجعل من الصيام عبادة مقبولة معبوءاً بها عند الله يجدها الصائم في ميزانه يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، وينظر المرء أيمن منه فلا يرى إلا ما قدَّم، وينظر أشأم منه فلا يرى إلا ما قدَّم، وينظر قدَّامه فلا يرى إلا ما قدَّم..!!

أجل: ما قلناه في هذا الباب حريٌّ أن يحملنا على التعرف إلى بعض من أولئك الذين عمل التوجيه النبوي ـ والسنة بيان للكتاب ـ في نفوسهم عمله، وكانوا الترجمان العملي لما ينبغي أن تكون عليه العبادة، وجعل الله منهم أعلاماً في تاريخ الإسلام، يجد المسلم الواحد منهم صورة العمل المتصل بإرث النبوة، والدليل النير الواضح، على أن ما يهدي إليه القرآن وبيَّنه الرسول عليه الصلاة والسلام: ليس أفكاراً تجريدية تستعصي على التطبيق، ولكنها توجيهات قيِّمة جدٌّ قيِّمة في حدود واقع الإنسان في فطرته وقلبه وعقله وغرائزه ومشاعره كما خلقه الله.

وليس لقائل بعد هذا أن يقول: هذه أمور فوق طاقة البشر، وليست للعمل والتنفيذ، وإذا حصل ذلك من البعض: كان دليل التكاسل والقعود، وطلب العافية من العبادة ومستلزماتها. كما أن هذه التوجيهات المباركة ـ كما قلنا ـ غير مقطوعة النسب عن عملية البناء المتجددة في المجتمع وتنمية طاقاته كلها في ظل شرعة الحكيم الخبير، التي من عيون سماتها: وجوب التكامل بين عمل القلب وعمل الجوارح.

مر الحسن البصري ـ وهو من سادة التابعين رضي الله عنه ـ بقوم لاهين يضحكون ضحك غفلة في رمضان فقال لهم: «إن الله عز وجل جعل شهر رمضان مضماراً لخلقه يستبقون فيه لطاعته، فسبق أقوام ففازوا، وتخلف أقوام فخابوا، فالعجب كل العجب للضاحك اللاعب في اليوم الذي فاز فيه السابقون وغاب فيه المبطلون، أما والله لو كشف الغطاء لاشتغل المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته» فالمحسن يشتغل بفرحته بما كان من فضل الله عليه بالقبول ـ كما أخبر النبي ﷺ ـ والمسيء يشغله عن طيِّب الثمرة حسرتُه وندامته لما ضيَّع على نفسه من نفحات الخير في رمضان.

والأحنف بن قيس ـ وهو من هو جهاداً وحصافة وتبصراً للأمور ـ: يقفنا على يقظة المسلم التي تحمل على الخشية والتطلع إلى حسن العاقبة والقبول. كان ذلك حين كان صائماً ـ صيام نافلة فيما يبدو ـ فقالوا له: إن الصوم يضعفك، فقال: «إني أعده لسفر طويل، والصبر على طاعة الله أهون من الصبر على عذابه».

إن الذين استغنَوا عن الشهوات والحطام هم الذين قدروا على أن يَزينُوا تاريخ هذه الأمة ويسهموا في بناء حضارة الإسلام.

وإذا شئنا أن تعود أمتنا إلى مسيرتها الأولى من خلال يقظة تواجه ما تواجه من التحديات والمعوقات: كان لزاماً أن نضع نصب أعيننا وعلى شكل منهجي نَصْدُقُ في تنفيذه: أنه لا يصلح آخر هذه الأمة؛ إلا بما صلح به أولها.

وإذا توافر ذلك، وتُرجم إلى حركة داعية في دنيا الواقع: فحدِّث ولا حرج عما يكون من وافر الخير للفرد والجماعة، والأمة، وإنه لرزق إلهي ماله من نفاد!!

آيات الصيام منهجية البناء.. والتقوى

«٧»

إن الذي جلَّى الوجه الحضاريَّ لأمتنا على المستوى اللائق في ميادين الفكر والسياسة والاجتماع وغيرها.. هم أولئك الأفواج من جند الله عبر القرون المتطاولة. الصفوةُ الذين أحكمت الدعوة المحمدية بناءهم ظاهراً وباطناً؛ فوضعوا طاقاتهم وإمكاناتهم على طريق البناء المتميز للأمة، حتى أصبح أيُّ لون من ألوان النماء في تلكم الطاقات والإمكانات رافداً من روافد الخير والفلاح لمجتمعهم الكبير، وكان لهم من الوعي والإخلاص في الحركة، ما استطاعوا معه أن يدركوا ما عليه واقعهم، بعيداً عن التجربة والخيال، ويأخذوا بيده إلى حيث الاحتكام إلى شريعة الإسلام ترعى بنورها شؤونه كافة، ولمفهومات الإسلام ترسم له منهج النظر والتفكير.

كما استطاعوا ـ وهم يُعنَون بمخالطة المعارف الإسلامية في البناء وتنمية حوافز الرقي ـ أن يتلقفوا بكثير من الأمانة والوعي ما زخرت به أعصارهم من صنوف العلم والمعرفة، ومن ثمرات التجارب الإنسانية، وأن يهضموها ثم يقدموها ـ على صعيد النفع للأمة ـ من منظور إسلامي، ويجعلوا من رصيدها روافد لهذه الأمة تسهم في تشييد معاقل الهداية والبر. وتمدُّها بما يعود على قوتها بالنماء والإطراد، كيما تؤدي رسالتها في العالمين.

وليس من مكرور القول الإشارة إلى أن جند الله هؤلاء كانوا كذلك، وأغلى ما يميزهم تقوى الله عز وجل؛ فهم أحباب الله الأتقياء الأنقياء في كل ما ذكرنا ـ وهو قليل من كثير ـ والتقوى عندهم، وكما هي في المفهوم الإسلامي الصحيح: اجتناب

للمعاصي وأداء للفرائض واستكثار من النوافل، وجهاد في سبيل الله، مع إخلاص في العمل ومراقبة لله عز وجل في السر والعلن؛ كلٌّ في موقعه وإطار عمله وتخصصه، والثغر الذي أقامه الله عليه.

وهذا ما يذكرنا بما ختمت به أول آية من آيات الصيام في سورة البقرة من قول الله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾﴾.

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ هذه جعلها الله غاية سامية للمؤمنين ترتجى وتطلب من خلال صيام شهر رمضان إيماناً واحتساباً.

فلينظر المسلم في عظمة كل من الغاية والوسيلة؛ أرأيت!! لعلكم تتصفون بمنقبة التقوى فتكون سجية لكم، فتصبحوا وتمسوا والتقوى نور يضيء تصرفاتكم، وقوة باعثة على استقامتكم ونصرتكم لدين الله في أنفسكم وفيمن ولاكم الله أمرهم صادقين مخلصين.

إنا ونحن نسعد بالنظر في آيات الصيام من سورة البقرة نستنير بعطائها على ساحة البناء والمبتغى؛ يستوقفنا هذا الوجه من وجوه الهداية في هذا المعلم القرآني؛ لما أن التقوى ضمانة أيٌّ ضمانة لاستقالة الفرد، ولسلامة الحركة في خلايا المجتمع، عبادةً، وتعاملاً بين الناس، وتعاوناً على الخير، وتناصحاً أميناً بين الحاكم والمحكوم.

وعندما قال أحد الرعية للخليفة الثاني عمر رضي الله عنه: «اتق الله يا عمر» وقال بعض الحضور: ألمثل عمر يقال هذا الكلام؟ ـ يعني كيف يقال له ذلك وهو من هو في صدق إيمانه وعدله الذي أصبح مضرب المثل ـ قال الخليفة الراشد ـ في حرص على هذه الضمانة وترسيخ لمفهوم فذ من مفهومات الإسلام على الصعيد الحضاري ـ .. قال له: «دعه يقلها فلا خير فيكم إن لم تقولوها ولا خير فينا إن لم نسمعها» يعني سماع رضى يبعث على التطبيق والإنفاذ.

لقد كان عمر رضوان الله عليه ــ وهو يملي على التاريخ هذا الموقف المشرق بوعي الحاكم المؤمن وقوته في الله ــ يتجه صوب الإحكام في البنية الحضارية وسلامتها. وأن يكون في عداد أحباء الله المتقين يقيم عدل الله في الأرض، ويحفظ التوازن بين حقوق الحاكم والمحكوم.

نقول هذا وعبير ليالي الشهر الميمون وأيامه يملأ على المؤمنين جنبات قلوبهم، ونور الطاعة صياماً وقياماً، وتلاوة وتدبراً لكتاب الله العزيز، يريح نفوسهم ويسمو بها إلى معالي الأمور والحرص على فعل ما من شأنه أن يقربهم إلى الله زلفى.

فليكن وراء ذلك صدق العزيمة في أن يكون شهر رمضان ــ بحق ــ رحلة بناء على قوة الإرادة في طاعة الله والجهاد في سبيله، ومصدر تنمية لأخلاق الصبر والأمانة والمراقبة، والحسُّ المشترك بين المؤمنين في ظل العبودية لله عز وجل، والإخلاص في تلقي الخطاب الثري الندي: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

وما أجمل أن يبلغ صدق العزيمة مبلغه، فتصحب رحلتَنا في الحياة أخلاقُ الصيام ومشاعر الصائمين الصابرين المقربين.

وإذا صدقت الوجهة وسلم للمؤمن التوكل، وأخذت النفس بأخلاق الفارين إلى الله، المشوقين إلى مرابع عطائه في جنات عدن: أمنت العاقبة ــ بفضل الله ــ وتحقق الفوز في الدارين.

القرآن.... وحراسة البناء

« ١ »

سبحان ربنا العلي الأعلى الوهاب، ما نظر المؤمن في واحد من معالم كتاب الله العزيز، إلا ازداد يقينه بسعة الآفاق التي ذكرت في قوله تعالى في سورة الكهف: ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾ [الكهف: ١٠٩]. والتي لا يرقى إليها مبلغ علمنا المحدود.

وفي ظل شهر الله المبارك، شهر القرآن، نتابع رحلتنا مع الحكمة التي تبدو ـ والله أعلم ـ من وراء عناية الكتاب الكريم بواقعة أولئك الأعراب الذين استسلموا خوف القتل والسبي ـ كما توهموا ـ وطمعاً بالمغنم المادي، وزعموا أنهم قد آمنوا، ثم جاء الرد عليهم بأوضح بيان ﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤].

ولقد كان الوجه الأول للحكمة كما أدى إليه اجتهادنا: التحديد الموضوعي للمواقف وأصحابها، بحيث يتضح على طريق الدعوة المثقل بالأعباء والمسؤوليات: من هم المؤمنون حقاً ومن هم الذين لم يرقوا إلى هذا المستوى؛ كما يوحي به قوله جلّ وعز: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الحجرات: ١٥].

وفي نظرة تتجاوز الأوليات إلى غيرها: نجد أن من الأمور المتعلقة بالحكمة أيضاً: إعطاءُ الأولوية لقضية البناء الكبرى التي بدأها رسول الله ﷺ من أول يوم أشرقت فيه جنبات مكة بالوحي، وآذن الله محمدَ بن عبد الله بن عبد المطلب، أنه المؤتمن على رسالة الله للناس، ثم تعليمُ المسلمين قيمة هذه القضية على سلم الأولويات، وما هي المؤشرات التي تؤهل لحمل العبء والقدرة على البناء؟.

من أجل هذا: كان طبيعياً أن يصحب عمليةَ البناء حِرصٌ على مضمون الرسالة أن يساء فهمه ويلتبسَ منهج النفاذ إلى تطبيقه، أو أن يتلوَّن بالرغبات والأهواء تصوُّره، الأمر الذي يعرقل المسيرة، ويعوق اطراد النماء في صلة المؤمنين بالرسالة وبكل ما فيه صقل الطاقات لتحويل المبادىء والقيم إلى وجود عملي يتحرك في ميادين العلم والتشريع والأخلاق، والترجمة عن ذلك بمناهج، وخطط مرحلية تؤذن بالمخالطة العقلية والقلبية للرسالة، والإحاطة بالواقع كما هو، والصدق في التنفيذ.

أجل: إنها قضية البناء الفريدة في تاريخ البشرية؛ فالقرآن ــ وقد ائتمن رسول الله على بيانه ــ يهدف إلى بناء الإنسان في قلبه وعقله وجسمه ومشاعره بناءً يحمل كل سمات التكامل والتوازن والعمق، كيما يكون على مستوى حمل الرسالة، كما يهدف القرآن كذلك إلى بناء المجتمع على النهج الذي رسمته تلك الرسالة الربانية الهادية، على الوجه الذي يصل بالمسلمين إلى أن تكون منهم أمة صادقة الانتماء إلى ما جاء به رسول الله عليه الصلاة والسلام، جديرة أن تبرز إلى دنيا البشرية بوجه حضاري يتألق بالإيمان ولا يهمل المعرفة، ويضع الإنسان حيث كرمه الله﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وتبدو الحاجة ملحةً إلى توكيد ما سبقت الإشارة إليه من تلك البدهية التي تقوم على أن الإيمان هو قاعدة البناء في كيان الأمة وخصائصها الذاتية، وأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بسعة المدلول لكل منهما، وفي إطار ما لهما من أبعاد عميقة وشاسعة لا تحجز عن ميدان من الميادين في المفهوم الإسلامي الصحيح: هو حراسة ذاتية من قبل الفرد والجماعة لقيم الإسلام التي تحكم الفرد والمجتمع والدولة، ورقابة تنبع من داخل النفس لبنية المجتمع أن يطولها الأذى، ويحول دونها ودون أن يلازمها اطراد النماء.

إن جيـلاً يصل مـا انقطع بين الأمـة وبين منهج البناء الذي كـانت به خيـر أمـة أخرجت للناس، هو الذي يجب أن تتضـامن جـهود العاملين في كل المستـويات على وجوده الذاتي في إدراك لطبيعة المتغيرات وتعدد وجوه التحديات.